

الدور السياسي للمرأة في الحضارة العراقية القديمة

د. رقية سعيد^(*)

المقدمة

حظى العراق باهتمام واسع منذ أقدم الأزمنة فاقبست كثير من الأمم والشعوب ومن حضارته، وأفادت من إبداعاته، وذكرت حواضره، بابل وبغداد، وتناقلت أخباره، وهم بين معجب مبالغ في المدح، أو حاقد مندفع في القدح والتشويه. وإذا كانت الحرية أساس ازدهار الإنسان في العراق، فإنها كانت باب يلج منه الدساسون، فجاءتنا عن تاريخه معلومات تفوق ما جاء عن تاريخ أية أمة أخرى، غير إنها معلومات اختلط فيها الغث بالسمين. والصدق بالكذب والسليم بالفاسد، مما كان له اثر في تشويش الأفكار، ولكنه لم يفلح في اجتثاث ما تميز به أهل العراق من اهتمام بالإنسان، وحرص على معرفة مسيرته وتقدير للقيم السليمة.

وحيث أولى أهل العراق اهتمام بماضيهم الذي صنعوه وشيدوه بكدهم وعرقهم وأحياناً بدمهم، وعنوا بتناقل أخبار ماضيهم وتاريخهم، يدركون منه عراقهم ويطلعون فيه على مثلهم، ويستذكرون منه نشأة ودور عظمائهم، وعقائدهم، وفاق أهل العراق أي قوم غيرهم في مقدار ما دونوه، عن أحداث وأوضاع ماضيهم، وإذا كان الأكثر مما دونوه قد ضاع واندثر فإن ما بقي يكفي بمقداره وتعدد ميادين اهتمامه أن يقدم صورة واضحة وان لم تكن كاملة عن مختلف العصور التي خلفت حضارة عريقة فالابتداء سيكون مع أهل سومر وأكد ومن ثم بابل والختمام سيكون بالإمبراطورية الآشورية هي محاور أساسية في هذا البحث.

^(*) تدريسية/كلية النخبة الجامعة الأهلية/بغداد

الإشكالية

تنطلق إشكالية البحث من طرح تساؤل هو هل كان للمرأة دور فعال في الحضارة العراقية؟ وهل شكل ذلك الدور بصمة فعالة في إدارة الدولة؟
الفرضية

تنطلق فرضية البحث من إن المرأة كان لها دور وبصمة في الحضارة العراقية لم يمتد تأثيرها فقط في إدارة الأمور السياسية، بل امتد التأثير في إدارة الأمور الاقتصادية والدينية.

الأهمية

شكل دور المرأة محور مهم ونقطة حضارية في تاريخ بلاد وادي الرافدين، حيث تأتي أهمية البحث من كون إن المرأة حظيت باهتمام واسع مكنها من إدارة الأمور بشكل فعال ويعود ذلك إلى دور التشريع الذي مثل القاعدة الأساسية لانطلاقة المرأة ودورها الرائد في شتى الميادين.

الهدف

إن هدف البحث هو تسليط الضوء على المرأة وكيف كانت تؤدي الدور الريادي والقيادي في إدارة الأمور السياسية والاقتصادية والدينية، مكنها من أن تحظى بتشريع يضمن لها حقوقها وحرّياتها.

المبحث الأول: دور المرأة في بلاد سومر وأكد

بعد انقضاء الألف الرابع قبل الميلاد، حين نمت قرى العراق الزراعية الأولى وصارت مدناً تشعبت فيها الحياة وتشابكت مصالح السكان والمعبد والكهنة، وكان لابد من إيجاد تشريعات لحماية الفرد في المجتمع وتنظيم شؤون الحياة في دولة المدينة (City-State).

فوضعت إصلاحات اجتماعية أولاً أعقبتها قوانين وشرائع كان للمرأة فيها نصيب وافر. فقد وضع أورو- كاجينا (2378-2371 قبل الميلاد) الحاكم السومري لسلالة لكش إصلاحات اجتماعية تنظم حياة الأسرة ومكانة المرأة في مجتمع دولة

المدينة السومرية، إضافة إلى تنظيمه للشؤون الاقتصادية وحده من سيطرة المعبد وكهنته على شؤون الدولة المالية وفي شريعة أور - نمو مؤسس سلالة أور الثالثة السومرية (2113-2006 قبل الميلاد) عدد من المواد القانونية تعالج حقوق المرأة الباكر والمتزوجة والمطلقة. ولم تغفل شريعتا لبت - عشتار وأشنونا المرأة وشؤونها العائلية، كما تحتوي شريعة حمورابي (1792-1750 قبل الميلاد) على أكثر من ثلاثين مادة قانونية (المواد 127-194) تعالج شؤون الأسرة والمرأة بالذات من زواج وطلاق وأرث وتبن وحمايتها من أي نوع من أنواع الاعتداء. وإن هناك العديد من رقم طين مدونة بالخط المسماري لقوانين آشورية تنطرق في عدد من موادها إلى شؤون المرأة ومكانتها الاجتماعية وفي العديد من قوانين العراق القديم مواد تبحث في حقوق المرأة وامتيازاتها التي تُعد على درجة من التقدم في حينه. فقد أعطت بعض تلك التشريعات للمرأة حق إدارة أملاكها الخاصة بنفسها دون أي تدخل من ذويها أو زوجها، كما منحتها إحدى مواد شريعة حمورابي الحق في طلب الطلاق أن استطاعت أن تثبت أمام القضاء أن زوجها قد أهانها أو أساء إلى سمعتها، كما أعطها الحق في أن تثبت براءتها وإخلاصها للحياة الزوجية إذا ادّعى الزوج بأنها قد خانتها⁽¹⁾.

وكان للمرأة في العراق القديم الحق في ممارسة أعمال ومهن مختلفة والقيام بواجبات ضمنها لها المجتمع والقانون. فقد شاركت نساء سومريات معروفات أزواجهن الأمراء والحكام في الإشراف على شؤون الدولة وتصريف الشؤون المالية وجمع الضرائب وتوزيع الأرزاق وشراء العبيد وترؤس الاحتفالات الدينية. كما برزت منهن حاكمات وكاهنات وقد شغلت نساء بارزات في المجتمع الآشوري مناصب كبيرة في الدولة⁽²⁾.

شيعاد : ومن النساء الشهيرات في العراق القديم الملكة شيعاد(بو-أبي) زوجة الملك آبار - كي أحد ملوك سلالة أور الأولى سنة(2650 قبل الميلاد). اشتهرت هذه السيدة السومرية بمقبرتها المكتشفة في أور في أواخر عشرينات القرن الماضي والشهيرة بزيتها وأثاثها الملكية من الحلي والأحجار الكريمة وكذلك الضحايا البشرية التي رافقتها إلى مقبرتها والمؤلفة من حاشيتها وخدمها وحرسها بألبستهم الكاملة

وأسلحتهم وعرباتهم وعددهم تسعة وخمسون شخصاً. وقد تكون شعباد وزوجها أبار - كي من ضحايا طقوس وشعائر الزواج المقدس الذي كان يمارس سنوياً في مرحلة مبكرة من التاريخ السومري ليعم الرخاء والخصب في البلاد.⁽³⁾

وهذا أوج ما وصلت إليه المرأة في العهد السومري في الحضارة والتقدم، وما دامت هي التي اختارت الأواني الذهبية لمائدتها الملكية وأدوات زينتها النادرة فلا يستبعد كونها هي التي أشارت على الصناع المهرة أن يصنعوا لها أكلیل الرأس النادر، والذي لم يشاهد من قبل في العهود السومرية السابقة عند النساء اللواتي سبقت - شعباد - هذا الإكلیل من الذهب الخالص الذي شكل أوراق الصفصاف أو أوراق شجر الزان المزخرفة بالذهب وقد ارتفعت فوقه ثلاث زهور تبدأ من مؤخرة الإكلیل الخلفية وتنحني حركة الخطوط الثلاثة برقة مشكلة نصف أقواس تتناول فيها الأدوار الثلاثة، أن هذا الإكلیل يضيء مهابة وإجلال للملكة - شعباد - (أكتشف وولي هذه المقبرة بين عام 1922-1933 واكتشف القبر المرقم (789) العائد إلى آباركي ومن بعده القبر الملاحق له رقم (800) العائد إلى الملكة بو - آبي - شعباد، وقد فسر وولي هذه الظاهرة بأن الملكة بو - آبي - بدافع حبها لزوجها الملك آباركي أوصت أن تدفن بالقرب منه بعد موتها، ولهذا السبب نشاهد القبرين (789) و(800) متلاصقين⁽⁴⁾.

ألمطربة السومرية " اور - نانشي "

تعتبر من أوائل من تحدث عنهم التاريخ في مجال الغناء في العالم القديم، وهذه المغنية الشهيرة التي نالت شهرة واسعة كانت تجيد العزف على الآلة الموسيقية بدليل وجود تمثال لها وهي تعزف وكذلك تجيد الرقص مع الغناء وخاصة في القصور الملكية والحفلات ذات المستوى العالي أن تفاصيل هذا التمثال توحى لنا بوضعها الأرستقراطي ويبقى تمثال أور - نانشي يشغل حيزاً مهماً في الفن السومري في عصر مسيلم ومن إنتاج مدينة مارى التي وجدوا فيها كثرة من التماثيل التي تمثل الحقبة السومرية، وهذه التماثيل تضاف إلى قاعدة الفن السومري الثابتة الركائز⁽⁵⁾.

هناك دلائل تشير أن المرأة السومرية في بداية عصر فجر السلالات كانت تتمتع بمركز اجتماعي مرموق وبقسط وافر من الحرية والاحترام وإنها تشارك الرجل في كثير من المجالات الاقتصادية والدينية وكان للمرأة دور فعال في قيادة الدولة ومن هذه النساء: الأميرة السومرية (ديم باندا) زوجة الحاكم السومري ((انيسيتارزي)) حاكم لكش (2384ق.م) .

الأميرة (بارنمتار) زوجة لوكالاندا .

الأميرة (شاشا) زوجة اوروكاجينا حيث قام هولاء النسوة بالإشراف على إدارة وتصريف الأمور التجارية الواسعة النطاق في دويلة لكش .

إن الأميرة ((ديم باندا)) تتأخر الاحتفالات الدينية التي تقام في كرسو ، وان هولاء النسوة كن يحافظن على مراكزهن المقدسة حتى بعد زوال حكم أزواجهن .
الملكة (كوبابا) التي حكمت على عرش مدينة كيش (2420 ق.م) وحكمت لمدة 100 عام وأعطت هذه الملكة دور فعال لمملكة كيش وكانت تحظى بشعبية كبيرة من قبل سكان المملكة لأدائها الناجحة لسياسة الدولة الداخلية والخارجية⁽⁶⁾ . إن شريعة اشنونا ولبت عشتار هي أولى الشرائع التي عالجت حقوق المرأة وفق قوانين دعمت وشكلت نصوص أساسية تجعل من المرأة في حضارة وادي الرافدين مصدر للحكم والقيادة.

2-بلاد أكد

إن الأكديين لا تزال لغتهم مجهولة وهم يمثلون من أقدم هجرات قبائل الجزيرة إلى وادي الرافدين، كانت لغاتهم تعود في أصولها عائدة لآلات التي تفرعت منها البابلية والآشورية والعبرية و الآرامية التي تسمى اللغات السامية، و(سرجون الأكدي) الذي يعتبر من أعظم القادة الذي حقق انتصارات ساحقة على بلاد سومر ويحكي انه خاض ثلاث وأربعين معركة حقق فيها انتصار ساحق، واعتمد الأكديون في توغلهم على الغزو والدبلوماسية فعمد (نرام سين) إلى غزو الكنعانيين في ابيلا وحرقت مدينتهم ومعابدهم وإنهاء وجودهم في شمالي سوريا⁽⁷⁾ . ويبدو إن أهم الشخصيات العراقية التي لعبت

دور كبير في تولي السلطة السياسية هي ابنة (نرام سين) ، (تارام أكادا)، والتي لعبت دور كبير في إدارة الدولة وأحدثت تغيير في الطابع الديني والسياسي والفني في العاصمة الحورية، ويبدو انه في الواقع نرى شحة المصادر التي يمكن أن تزودنا بخصوص هذه الشخصية رغم الدور الذي لعبته والآثار التي تركتها جراء السياسة التي اتبعتها ونذكر هنا تفصيل وارد عنها⁽⁸⁾.

تارام أكادا

يقع تأثير (تارام أكادا) ابنة (نرام سين) في سياق امتداد النفوذ الأكدي السياسي والحضاري في حوضي الخابور والفرات والأناضول. واعتمد الأكديون في توغلهم على الغزو والدبلوماسية.. فعمد (نرام سين) إلى غزو الكنعانيين في أيبلا وحرق مدينتهم ومعابدهم وإنهاء وجودهم في شمالي سورية أما اوركيش الكنعانية (بالقرب من القامشلي) أصلاً فقد تجاوز ملكها مع ملوك أكد وقبل بسيادتهم مفضلاً التعاون معهم على حرب محسومة النتيجة لاسيما لأن اوركيش دويلة مدينة لم يتجاوز نفوذها السياسي مشارفها وأسوارها ولأنها محاطة بدويلات مدن يديرها الأكديون مباشرة ك(ناجار) (تل براك) وسخنا (تل ليلان) (شوبات انليل) عاصمة (شمشي أدد) الأول لاحقاً، ومدن أخرى ضمن شبكة تجارية واسعة تربط بين مدن القلب الرافدي بابل وكيش ولاكاش وأور ونيبور واكد وشوروباخ (اوروك) بماري وتوتول وأيمار وقطنا ومدن الساحل الفينيقي غرباً والأناضول شمالاً.. وبدلاً من تعيين حاكم أكدي على اوركيش، عمد (نرام سين) إلى تزويج ابنته (تارام أكادا) للأندان حاكم اوركيش ربما كان الأندان (توبكيش او تيش آكال)⁽⁹⁾.

ويبدو إن (تارام أكادا) قد صاحبها عدد من الموظفين الأكديين مهمتهم الإشراف على المنتج الزراعي وتأمين الطرق التجارية بين حران وكاركميش، والمدن السورية والأناضولية الأخرى، ويبدو واضح من مقارنات المطابع والأختام الاسطوانية الاكدية مثيلاتها في اوركيش وكنائش تمثل طراز فني ذا مضمون يرسم صورة الآلهة أو يرسم صورة الثور المجنح عند الأكديين القدماء⁽¹⁰⁾.

إن تأثير (تارام أكادا) يبدو واضح من خلال الأختام الاسطوانية التي ظهرت في تلك الفترة متروك عليها لغة مسمارية وهي تمثل نموذج الفن الاكدي كمشاهد القتال والأسود والشيران فضلا عن النجمة الاكديّة المأخوذة من (نرام سين) والتي تبدو واضحة في مسلة (نرام سين)، ويبدو ختم (تارام أكادا) واضح حيث يمثل رجل بجسم ثور يقاتل أسد، ورجل عاري يقاتل جاموس من ناحية أخرى، وبين تلك تتخلل الكتابات الاكديّة، ويبدو واضح إن ختم الملكة يبدو واضح على الأبواب والمخازن، ويمثل مدى تأثير تلك الملكة في كل نواحي الحياة خاصة منها الدينية والسياسية لا بل الاقتصادية منها أيضا.

إن (تارام أكادا) كانت مع ملك يساعدها وهو (اوركيش) وتظهر التنقيبات إن القصر يحاكي الآثار الاكديّة وحيث نرى من جهة أخرى أيضا مدى تأثير (تارام أكادا) في وسط النقوش في القصر الملكي يضاف إلى المعابد التي ختمت نقوش أخرى توصف وصف دقيق التأثير البالغ لـ(تارام) ⁽¹¹⁾.

إن تأثير تارام أكادا يشير إلى أهمية الدور الذي لعبته في مجال الفن والاقتصاد والدين والسياسة والتي لم تغيب عن مدى تأثيرها بها، فالرقم الطينية التعليمية التي عثر عليها، في قصر مخصص للكتاب والهدف منه هو تعليم الاكديّة للطلاب أما تختم الأبواب والمخازن والغرف فيشير إلى نشاط إداري واقتصادي ويتضح من خلال وجود حاكم إداري أكدي إلى جانب حاكم آشوري مهمة الوجود الاكدي والتأثير والطابع لـ تارام أكادا، من خلال التجارة مع بلاد الرافدين وتجارة الخيول والأخشاب والمعادن والعربات وبعض المنتجات الزراعية ولعل تأثير الملكة الاكديّة نقل منظومة المعتقدات والفنون التشكيلية رفيعة الطراز، والتي تبين التأثير الأول والأخير للملكة الاكديّة ⁽¹²⁾.

انخيدو انا-ابنة سرجون الاكدي

أول أميرة تشغل مركز الكاهنة العظمي (لأنو) وللاله (سن) وهو اله القمر، وهي بذلك قد حازت على مجموعة من السلطات الدينية في مدينة الوركاء، ولعل امتداد السلطة في العائلة تعبر عن شكل من أشكال تمظهر النظم السياسية فيما سبق، والتي

كانت تحكم باسم الآلهة في تلك الفترات التاريخية الغابرة، كما إن (سن) ذاته عند العرب الجاهليين هو (ود) إله الحب في بعض ما يرمز إليه، ولا زالت الكلمة تحمل مدلولاتها التاريخية بالتعبير عن مشاعر الحب، وقد سادت عبادة آلهة القمر في أور.

كما أن أهميتها لم تنبع فقط من اعتبارها الكاهنة العظمى، وإنما لكونها قد سنت أن يبقى بعدها منصب الكاهنة العظمى مقتصرًا على الأميرات من بنات وأخوات الملوك أيضًا، وشغلت (انخيدو أنا) إضافة إلى منصبها منصبًا آخر هو الكاهنة العظمى لمعبد الإله (آنو) إله السماء في الوركاء. ولم تشتهر الأميرة بكونها الكاهنة العظمى فقط أو لسنها ما أشرنا إليه، بل بكونها قد برزت في مجال الأدب، وهي شاعرة تنظم القصائد في مدح الآلهة، وقد وصلتنا أحد قصائدها الشعرية المسماة (سيدة النواميس الإلهية)، والتي نظمته في مدح الآلهة (أنا) (عشتار)⁽¹³⁾. يبدو مما اتضح سابقًا إن الأكديين ادوا دورًا كبيرًا في السياسة والدين بالدرجة الأولى من خلال الملكات الأكديات منها (انخيدو أنا- تارام أكادا)، حيث الدور الذي لعبته تلك الملكات كان له تأثير كبير وهذا يبدو واضح من خلال التأثير في شتى الجوانب سواء الاقتصادية منها أو الدينية وحتى التجارة والنقود والمطابع والنقوش والزخارف لا بل تتعدى إلى المعتقدات على اعتبار إن (انخيدو أنا) كانت تمثل ملكة ذات سلطة دينية ويدها زمام أمور الدين ويضاف إلى الجانب السياسي والدبلوماسي التي لعبتها (تارام أكادا).

المبحث الثاني: دور المرأة في بلاد بابل وآشور

الدولة البابلية (626 - 539 ق.م): قامت هذه الدولة على يد أقوام من الجزيرة العربية وهم الكلدانيون، ومن أشهر ملوك هذه الدولة نبوخذ نصر (562-640 ق.م).

والمرأة في الحضارة البابلية كانت عديمة الأهلية، محرومة من حقوقها، كانت مملوكة وليست مالكة سواء كان للزوج أو الأب، وأيضا ليس لها الحق في أن ترث زوجها بعد موته أو ترث من والدها، على اعتبار أن التركة تكون للذكر وحدهم باعتبارهم امتداد لأسم العائلة. كذلك كانت المرأة تباع من قبل الرجل وكأنها سلعة من السلع، فقد كان الرجل البابلي يُعرض بناته للزواج، بعد أن كان يُنادى عليهم من قبله

لكل عابرٍ سبيل، وأيضاً كان الرجل البابلي يدفع بناتهٍ للبغاء عند افتقاره للمال. فكان يتاجر بهنّ من أجل المال.

ليس هذا فقط وإنما كان بإمكان الزوج عند عدم مقدرته على ردّ دينه لدائنه أن يقدم زوجته أو أبنته للدائن سداً لديونه! (ولكنهم تحرروا من هذه العبودية في السنة الرابعة)، فالمرأة عندهم وينظرهم لم تُخلق ألاّ لإسعاد الرجل، وكان يُنظر إليها نظرة احتقار، كما كان من حق الزوج أن يحكم على زوجته بالموت غرقاً لأقل الأسباب، كطلبها للطلاق أو إذا كانت مهملة لشئون بيتها وتربية أولادهم فكانت عرضة للحكم عليها بالطلاق دون أن تأخذ شيئاً. كما كان يحق له أن يلقيها في النهر إذا ما شك في سلوكها، لأنهم كانوا يعتقدون أنه عند رميها فأن النهر سينقذها إذا كانت بريئة لان آلهة النهر لا تظلم، وإذا لم تكن ستغرق، كما كان للأب وحده القرار الفاصل في زواج بناته، وإليه يرجع حق اختيار كتته في ما بعد⁽¹⁴⁾.

(حمورابي) (1792 – 1750 ق م) هو أكثر شخصية ذات أهمية وأفضل شخصية عرفت لحد الآن من تاريخ الشرق الأوسط القديم من النصف الأول من الألفية الثانية ق م. انه يدين بصيته الذي شاع بعد موته إلى المسلة العظيمة التي نقش عليها شريعة (حمورابي) وبصورة غير مباشرة إلى حقيقة إن سلالاته قد جعلت من اسم بابل مشهوراً على مدى الأيام. وبنفس الأسلوب الذي كانت عليه كيش قبل (سرجون) حين ضربت مثلاً لكل الأراضي غير السومرية الواقعة شمال سومر وأكد ومنحتها اسمها ولغتها، أصبحت بابل الرمز للبلد بكامله والتي سماها الإغريق ببلاد بابل (بابلونيا). إن هذا المصطلح يستخدمه علماء الآثار بطريقة مفارقة كمفهوم جغرافي للإشارة إلى الفترة التي سبقت حمورابي. كان اسم المدينة الأصلي ربما "بابالا"، والذي أعيدت ترجمته حسب التعليل اللغوي إلى "باب - إلي" أي باب الإله⁽¹⁵⁾.

ارتقت سلالة بابل الأولى من بدايات بسيطة. يمكن تتبع تاريخ المقاطعة السابقة لأور من 1894 فما فوق عندما جاء العموريون (سوموابوم) إلى السلطة هناك. ما يعرف عن تلك الأحداث ينطبق تماماً على النسب الخاصة بالفترة عندما كانت بلاد

مايين النهرين عبارة عن فيسيفساء من دول صغيرة. عزف (حمورابي) بمهارة على نغمة التحالف وأصبح أكثر قوة من سابقه. وعلى أية حال فإنه في السنة الثلاثين من حكمه فقط وبعد احتلاله لارسا، حينها أعطى تعبيراً قوياً عن فكرة حكم كل جنوب بلاد مايين النهرين من خلال تقوية أساسات سومر وأكد، في كلمات تعود إلى تلك السنة. في المقدمة لشريعة (حمورابي قائمة الملوك أدرجت المدن التالية على إنها تابعة لحكمه: اريدو، اور، لكش وجرسو، وزابالام ولارسا واوروك واداب و إسن ونيبور وكيشي وديلبات وبورسيبا وبابل نفسها، وكيش ومالكيوم وماشكان-شابير وكوثا وسيبار واشنونة) في محافظة ديالى وماري وتوتول في أسفل بالخ (رافد من الفرات) وأخيراً آشور ونيوى. كان هذا في السجل الحافل وأكد وأور الثالثة⁽¹⁶⁾. على أية حال لم تكن آشور ونيوى قد شكلت جزءاً من هذه الإمبراطورية لمدة طويلة بسبب في نهاية حكم (حمورابي) ذكر عن حروب ضد سوبارتو في دولة آشور⁽¹⁷⁾.

وتحت حكم ابن (حمورابي سامويلونا) (1749-1712 ق م) تقلصت الإمبراطورية البابلية بشكل كبير، وتبع ذلك ما أصبح تقليداً وهو قيام الثورة في الجنوب، استعادت لارسا استقلالها لفترة معينة، وسويت جدران اور واوروك ولارسا، أما اشنونة والتي ثبت انسحابها قد انهزمت في حوالي 1730، وبعد ذلك فإن الأحداث تذكر وجود دولة ارض البحر من سلالتها الذاتية (من كلمة ارض البحر يفهم أراضي الاهوار لجنوب بابل)⁽¹⁸⁾.

اما الكوتيين فلقد منع الكشيين فالبدية من دخول بابل ودفعوا إلى منطقة الفرات الأوسط؛ هناك في مملكة خانا (وتمركزوا في ماري وترقا أسفل التقاطع مع نهر الخابور)، يظهر ملك باسم (كاشتيلاشو) وهو من الأسماء الكشية، والذي حكم إلى نهاية السلالة البابلية، من خانا تحرك الكيشيين إلى الجنوب بمجموعات صغيرة لربما عمال الحصاد، وبعد غزو الحثيين بقيادة موسيليس الأول، والذي يقال انه اسقط آخر ملوك بابل سامسوديتانا عن عرشه في 1595 ، وتولى الكيشيون السلطة في بابل، إلى

هذا الحد لا تذكر المصادر المعاصرة هذا العهد، ويبقى السؤال دون حل هو كيف سمى الحكام الكيشيون في قائمة الملوك ضمن نهاية الألفية الثانية⁽¹⁹⁾.

ان نص قانون (حمورابي) على إعطاء سلطة مطلقة للأب على اعتبار هو الراعي الأساسي لإنشاء الأسرة والتي تعتبر في تلك الفترة أهم نواة المجتمع، ومثال آخر هو انه في حالة الطلاق حيث قسمها (حمورابي) إلى قسمين إذا كانت للزوجة أطفال تأخذ صدقة من زوجها ودخلا يكفي لتربية أطفالها، أما في حالة إذا لم يكن لها أطفال تكون لها حصة من أملاك زوجها الذي طلقها، مساوية لولد من أولاده السابقين. و قوانين حمورابي تبدو في غاية الصرامة وهذا واضح، لأنه كان يأخذ بمبدأ القوة القاهرة على من لا يطبق القوانين وهذا واضح عن طريق النظام الضريبة المتبع والالتزامات المترتبة عليها، كما فرض على الطبقات العليا التي ينتمي إليها أن تكون حسنة التصرف والسلوك، وتكون قدوة لغيرها ولأن العقوبة تكون اشد من غيرها من الطبقات⁽²⁰⁾.

الفترة التي تلت وفاة (حمورابي) ومجئ (شمشي ايلونا) حيث تولى الحكم ولكن نجد هنا التبدل في آلية النظام الذي كان متبعاً، وبسبب هذا النظام الذي جند حتى النساء للدخول في ساحات المعركة، أي في صفوف الجند البابلي، حيث هنا بدا دور المرأة يزدهر من جديد، حيث كانت تقوم بالأعمال التجارية بمختلف أنواعها، وتتصرف بأموالها، كما تريد حيث نجد إن أخت (حمورابي) كانت تمتلك الكثير من الحقول، ومارست النساء المهن، ومنها مهنة الطب، وكان الآباء يندرون بناتهم خدمة للآلهة، هذه الطقوس مورست أيضاً من قبل الطبقات العائلة المالكة⁽²¹⁾.

4-بلاد آشور

استقر الآشوريون في القسم الشمالي من العراق، حيث لم يكن هؤلاء الأقوام الغريين عن العراق لأنهم يعتبرون امتداد لأقوام سومر وأكد وبابل وحتى اللغة التي كانوا ينطقون بها هي لغة بالأصل سومرية واكديّة على الأغلب بل حتى بابلية وهي الآرامية والكلدية والعربية⁽²²⁾.

أما عن دور المرأة في العصور التاريخية، فقد تبوأ مكانة مهمة في المجتمع الآشوري، وبخاصة في العصر الآشوري القديم (2000-1500 ق.م)، إذ بلغت مكانة المرأة نفسها عما كانت عليه في العصر السومري، إذ هنالك عدة عوامل ساهمت في تبوأ المرأة مكانه متميزة منها ما يتعلق بطبيعة واصل نظام الزواج نفسه والذي كان سائداً في بلاد الرافدين المتمثل بالزواج الأحادي مما أسهم في نضوج شخصية المرأة وامتلاكها حرية أكبر في التصرف وامتلاك الأموال ولها حق البيع والشراء دون أن يكون عليها تأثير كبيراً من قبل الأب أو الزوج في معاملاتها التجارية. فضلاً عما كانت تتمتع به بلاد آشور من تطور في الأوضاع الاقتصادية والسياسية، ألفت بآثارها على الجانب الاجتماعي ونموه، وتطوره في آشور، إذ انعكست الأوضاع الاقتصادية المميزة على الواقع الاجتماعي بصورة عامة و المرأة بشكل خاص، فقد احتلت المرأة في هذا العصر مكانة مرموقة في المجتمع و مركزاً اجتماعياً جيداً، يتضح في قيامها بالأعمال التجارية المختلفة، فقد ورد ذكر المرأة في ألواح كبدو كيا، دائنة، وكفيلة، وبائعة، ومشتريّة للأموال والعبيد، وقيامها بالتوكل عن غيرها في أجراء بعض المعاملات التجارية، فضلاً عن إن بعضهن يحملن أختاماً خاصة بهن لتسيير تلك المعاملات⁽²³⁾.

أما عن إسهام المرأة في العصر الآشوري الوسيط (1500-1000 ق.م)، فعلى الرغم من أن المعلومات عنها قليلة، وتعتمد بالدرجة الأساس على المواد القانونية والنصوص الإدارية التي تشير إلى مكانتها لدى الآشوريين في هذا العصر يختلف عن وضعها في العصر السابق له، هذا الأمر يمكن رده إلى الأوضاع السياسية المتردية للآشوريين في النصف الأول من الألف الثاني ق.م وفي النصف الثاني من الألف الثاني ق.م تحول الآشوريين إلى دولة عسكرية بالدرجة الأساس، إذ ألفت الأوضاع العسكرية، بظلالها على الوضع الاجتماعي الآشوري، الأمر الذي تشير إليه أغلب المواد القانونية التي كانت تصب في صالح الرجل لأنه يمثل العنصر الأساس في بلاد آشور في تلك الحقبة واعتمادهم عليه في حروبهم⁽²⁴⁾.

أما المرأة في العصر الآشوري الحديث (911-612 ق.م)، وتحديدًا في عصر المملكة الآشورية الحديثة، فاغلب المعلومات التي وصلت عن المرأة تقتصر بالدرجة الأساس على نساء الأسرة الحاكمة ونساء الطبقة المتنفذة والعاملات في مراكز مهمة في القصر الملكي الآشوري، ولم تسعف هذه المعلومات بإعطاء صورة عن المرأة بشكل عام.

ان نتيجة للاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي الذي شهدته بلاد آشور في عهد المملكة الآشورية الحديثة ولاسيما في فترة المملكة الآشورية الثانية (745-612 ق.م)، نتيجة للانتصارات التي حققها الآشوريين بحروبهم المستمرة، والتي أصبحت تشكل المصدر والموارد الأساس لثرواتهم الطائلة، والذي انعكس بصورة ايجابية على المجتمع الآشوري بصورة عامة ولاسيما المرأة. فقد عادت المرأة إلى مكانتها المهمة كما كانت في العصر

الآشوري القديم، وشغلت وعملت في مجالات عدة منهن الكاتبة، والشاهدة في المحكمة، والقاضية، والتاجرة، وصاحبة الأملاك والعبيد والأراضي والبساتين... وغيرها.

وكان لتوسع العمليات العسكرية الآشورية إلى مناطق مختلفة وسيطرتهم على مناطق واسعة، أدى إلى احتكاك الآشوريين بأقوام مختلفة لهم عاداتهم وتقاليدهم المتنوعة وان بعض من تلك الأقوام كانت تحكمهم ملكات، وربما هذا الأمر ولد انطبعا لدى الملوك الآشوريين انه بالإمكان الاستفادة من النساء، فضلا عن ذلك أن الحروب الآشورية قد دفعت الملوك الآشوريون إلى عسكرة المجتمع بفئاته كافة الأمر الذي استلزم الاستفادة من قدرات و قابليات بعض النسوة عبر إشغالهن لمنصب حاکمة المقاطعة.

أما عن الأعمال الأخرى التي قامت بها بعض النسوة، ونتيجة للحروب الآشورية المستمرة وانشغال الرجل في المساهمة بالعمليات الحربية، فقد كانت هي من تتولى إدارة شؤون الأسرة والأملاك إذا لم يكن لها ولد في سن الرشد، لذا قد قامت المرأة بإجراء عملية البيع والشراء لنفسها وكذلك القيام بعملية الإقراض⁽²⁵⁾.

شمورامات-سمير اميس:

لعبت (سمير اميس) دوراً كبيراً في إدارة الدولة ، والمعروف إنها واصلت إدارتها للغزوات والمعارك حتى بعد وفاة زوجها وهي تقاتل إلى جانب ابنها (ادد-نيراري) الذي تولى العرش وحيث غزا الآشوريون زاكروس ومناطق آسيا ، كذلك ولت حفيدها لإدارة العديد من المقاطعات المجاورة لبلاد آشور، وكانت الملكة قد قادت بصحبة ابنها حملة لنجدة ملك كموح (شوبيلوليوما) حليف الآشوريين ودويلته التابعة للتاج الآشوري من تحالف يقوده (أتار شمخي) ملك ارباد وانضم إليه ملك كوركوم.. فانتصر الآشوريون بقيادة الملكة وابنها⁽²⁶⁾.

نقية -زوكوتو:

أن (نقية) امرأة آرامية تزوجها (سنحاريب) خلال ولايته للعهد وأنها لعبت دوراً يرقى إلى دور (سميراميس) في توجيه الحوادث في الإمبراطورية الآشورية وفي شمالي نينوى أو بالأحرى في شماليها الغربي حيث معبد نركال والى جانبه قصر ولي العهد في طريشو (شريخان) وحيث كانت (نقية) تقيم مع زوجها (سنحاريب) على عهد أبيه (سرجون الثاني)، وربما في أثناء ولاية عهد ابنها (أسرحدون) قبل اغتيال (سنحاريب) كانت قد تولت إدارة شؤون الدولة، أو بالأحرى إدارة شؤون الإمبراطورية وفق النظام الذي اتبعته⁽²⁷⁾.

أن (نقية) كانت قد صاحبت ابنها إلى المقاطعات الغربية وربما تمكنت من تجنيد المساعدة له من أخواله الآراميين فعاد إلى نينوى وتمكن من دحر التمرد وتسلم السلطة على الإمبراطورية فهرب (أردا موليسي) إلى اورارتا (أرمينيا) العدو التقليدي للإمبراطورية الآشورية. وكان تسلم (اسرحدون) لمقاليد السلطة بداية تحول كبير في اتجاه ما نتعارف على تسميته في العصر الحديث بالدولة البوليسية. فقد دشّن حكمه بإعدام المتآمرين وخصومه السياسيين⁽²⁸⁾.

الخاتمة

إن الحضارة السومرية التي حققت انجازات في شتى الميادين، فمن أوروك وسومر واريديو ولكش انطلقت الكتابة المسمارية ومنها خط الحرف وكتبت القصيدة الأولى ومن هذه الملكة شبعاد ، وأيضا من الحضارة السومرية انطلق المشرع الأول ومنها شريعة اشنونا التي أقرت بحزمة من التشريعات التي أثرت المجتمع السومري. إن معظم النظريات التاريخية تؤكد على نشوء الحضارات إلى جوار الأنهار ومن أقدم تلك الحضارات هي الحضارة السومرية، التي قدمت منجزات حضارية وتاريخية للإنسانية وأثرت أرسيف الإنسانية حيث الكتابة والترايل والملاحم والقوانين كلها نبعت من رحم سومر، ونقشت الكتابات على أديم الأرض من زقورات ومدن ودويلات اتسعت لتعج بحضارة أغنت العالم وهي سومر.

اما الاكديين لم يكونوا مختلفين عن بلاد سومر بقدر منح حقوق مختلفة للمرأة العراقية وإذا كانت شريعة اشنونا ولبت عشتار أعطت الحقوق الكاملة للمرأة السومرية فان الأمر بات مختلف عنه في بلاد أكد، ونذكر إن الاختلاف يكمن في التوسع في الحقوق السياسية للمرأة الاكدية لم يتوقف عند هذا الحد، لا بل امتد ليشمل حقوق دينية تؤدي من خلاله المرأة الاكدية سلطة دينية تضاف إلى السلطة السياسية التي مسكت بها زمام الأمور، والأمر معروف لدى ملكات العراق كيف حكمن وفق شريعة متضمنة حقوق موسعة تدبر بها أمور الدولة كافة، ولذا فان إدارة السلطة الدينية والسياسية من قبل المرأة الاكدية لا يرجع إلى توسع حقل الحقوق التي منحت لها، لا بل يعود إلى مضمون الشريعة ومجموعة القوانين التي تضمنت منح المرأة الاكدية كل هذه السلطات، ويبدو إن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد بل يشمل إدارة الأمور الاقتصادية والعسكرية وإدارة الحروب متوافقة مع سلطة الملوك الاكديين .

إن دور المرأة في حضارة وادي الرافدين اختلف من عصر إلى آخر فما نشاهده في بلاد سومر يختلف عن أكد وعن بابل والأمر يبدو واضح، لان المرأة ومكانتها اختلفت والأمر يعود بالدرجة الأساس إلى طبيعة نظام الحكم ويضاف إلى مدى الحرية التي

تمتعت بها المرأة، ويضاف إلى مسألة مهمة لا يمكن أن نغفل عنها وهي طبيعة الشريعة والقانون المتبع في تلك الفترة، والتفسير الواضح للقانون المتبع في تلك الفترة يعود إلى إعطاء أهمية وألوية في ممارسة المرأة للدور الفاعل، ولان (حمورابي) اقر في المادة (82) على حماية المرأة وحقوقها إلا إن الأهمية لا تكمن في تلك المادة بل إن (حمورابي) بصورة عامة لم يعطي أولوية لدور المرأة على اعتبار هناك انطلاقة مهمة ركز عليها (حمورابي) وهي نواة الأسرة وتلك النواة تعتمد على شخص مهم يتمثل بالأب لذا فعاتق الأهمية والمسؤولية تقع عليه، يضاف إلى إن (حمورابي) لا يعني انه قلل من أهمية المرأة على العكس كان حامي لها.

اما بلاد آشور فهي مختلفة عن باقي بلاد وادي الرافدين كون إن السياسة التي اتبعت في هذه الفترة اختلفت نوعا ما وذلك لان الدور السياسي للمرأة أفسح مجال أوسع وهذا واضح في أعمال (شمورامات) وكذلك القيادة الغازية (نقية زوكوتو) وبالتالي المسألة تعود أساسا إلى التشريعات والقوانين التي كانت متبعة في تلك الفترة والتي وضعت مجال أكثر توسعا في الدور السياسي للمرأة في حضارة بلاد وادي الرافدين، ويضاف إلى كل ذلك بالمقابل الطاعة المقدمة من قبل المواطن الآشوري وكذلك القيادات العسكرية التي تطيع كل الأوامر.

الهوامش

- 1- احمد سوسة، حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري والمكتشفات الاثرية، ج 1، بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، 1983، ص 549.
- 2- بهنام أبو الصوف وآخرون، الحضارة البابلية الأولى 1400-1595 ق.م.، الموقع الالكتروني-www.iraqt.
- 3- المصدر السابق، وأيضا انظر حسين الهلالي، شخصيات نسوية بو-آبي- شيعاد سيدة الحلبي والزينة الموقع الالكتروني-husienalhilaly@yahoo.com
- 4- بهنام ابو الصوف، الحضارة البابلية، مصدر سبق ذكره، وأيضا انظر المصدر سهى بطرس، المرأة في حضارة وادي الرافدين، وكالة زينيت، 2012، وأيضا انظر المصدر هاشم عبود الموسوي، المرأة في الشرائع القديمة في حضارة وادي الرافدين، انظر الموقع الالكتروني-www.alnorsee/article
- 5- فوزي رشيد، حضارة وادي الرافدين، مجلة آفاق عربية، العدد 3، 1977.
- 6- صباح محسن كاظم، الحضارة السومرية، الحوار المتمدن، العدد 2064، 2007.
- 7- صالح احمد العلي، العراق في التاريخ، بغداد، دار الحرية للطباعة ولشتر، 1983، ص 72-75.
- 8- قيس هادي، العصر الاكدي (2371-2161)، كلية التربية الاساس، جامعة بغداد، 2012.

- 9- بهنام أبو الصوف، الحضارة البابلية الأولى 1400-1595 ق.م. -الموقع الالكتروني www.iraqt.
- 10- قيس هادي، العصر الاكدي، مصدر سابق.
- 11- صلاح سليم علي، ملكات العراق بين الاسطورة والتاريخ، الموقع الالكتروني www.iraq.org.
- 12- صلاح سليم علي، المصدر السابق.
- 13- بهنام أبو الصوف، الحضارة البابلية الأولى، مصدر سبق ذكره.
- 14- سهى بطرس، المرأة في حضارة وادي الرافدين، وكالة زينيت، 2012.
- 15- المصدر السابق.
- 16- حضارة وادي الرافدين، الموقع الالكتروني www.iraqnnet.
- 17- المصدر السابق.
- 18- حميد الياس، دراسات في حضارة بلاد الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2014.
- 19- المصدر السابق.
- 20- صالح أحمد العلي، العراق في التاريخ، بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، 1983، ص 96.
- 21- المصدر السابق، ص 97.
- 22- صالح أحمد العلي، العراق في التاريخ، بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، 1983، ص 97.
- 23- علي جبار عزيز، تأثير الحروب الخارجية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المملكة الآشورية الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة واسط، 2011، ص 194-195.
- 24- المصدر السابق، ص 196، وأيضا انظر المصدر طالب منعم حبيب، الوضع السياسي في الشرق الأدنى القديم بين القرنين السادس عشر والحادي عشر، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1996، .
- 25- علي جبار عزيز، تأثير الحروب الخارجية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المملكة الآشورية الحديثة، المصدر السابق، ص 197.
- 26- بهنام أبو الصوف، الحضارة البابلية الأولى، مصدر سبق ذكره.
- 27- صلاح سليم علي، ملكات العراق بين الأسطورة والتاريخ، مصدر سبق ذكره.
- 28- المصدر السابق.

